﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾ [هود: 94 - 95]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

الانتقالُ منَ الإخبارِ إلى الخبرِ، ومنَ الغيبِ إلى الشُّهودِ، ومنَ الوعيدِ إلى العقابِ

توعّدَ شعيبٌ ﷺ قومَه فيما سبقَ بالتَّرقُّبِ وانتظارِ ما يؤولُ إليهِ تكذيبُهُم، وها هو أمرُنا الصّادعُ بالعذابِ قد صبّحهُم بكرةً في وقتٍ لا يُتوقَّعُ فيهِ العذابُ، بعد أن أنجى اللّهُ نبيّهُ ومَنْ معهُ برحمتهِ ولطفهِ، فكانَ حالُ المُعذَّبينَ عدمًا كأنّهم لم يعيشوا أغنياءَ لاهينَ[1]، ولمْ يتنعّموا بحياةٍ قطُّ، مثلهُم في ذلكَ مثلُ ثمودَ في البعدِ والهلاكِ، فالمناسبةُ بين الآياتِ، هو ذكرُ العذابِ المُتوعَّدِ، بعد ذكرِ الوعيدِ الصّادقِ، والانتقالُ منَ الإخبارِ إلى الخبرِ، ومنَ الغيبِ إلى المشاهَدةِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾: أصلُ مادّتِهِ (صيح)، فالصّادُ والياءُ والحاءُ أصلٌ صحيحٌ، وهو الصَّوتُ العالي. منهُ الصِّياحُ، والواحِدَةُ منهُ صَيحَةٌ[2]، والصّيحَة: العذابُ[3]. وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾؛ يعني به: العذاب[4].

2) ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾: أصلُ مادّتِهِ (صبح)، فالصّادُ والباءُ والحاءُ أصلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ. وهو لَونٌ منَ الألوانِ، أصلُهُ الحُمرَةُ، وسُمّيَ الصُّبحُ صُبحًا لِحُمرَتِهِ، كما سُمِّيَ المصباحُ مصباحًا لِحُمرَتِهِ[5]

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/367.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صيح).
(3) الخليل، العين: (صيح).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صيح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبح).

وتقول: صَبَحَني فلانٌ: إذا أتاك صباحًا، وتقول في الحرب: صَبَّحناهُم، أي: غادَيناهم بالخيل فنادَوا: يا صَباحاه، إذا استَغاثوا[1] فمعنى (أصبحوا) هنا: طلعَ عليهمُ الصّباحُ، وهُم مَوتى.

3) ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾: أصلُ مادّتِه: (دور)، فالدّالُ والواوُ والرّاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ من حَوالَيهِ. يُقالُ دارَ يَدورُ دَورانًا، والدّارُ أصلُها الواوُ. والدّارُ: القَبيلَةُ[2] وكُلُّ قبيلةٍ اجتَمَعَت في مَحلَّةٍ سُمِّيَت تلكَ المَحلّةُ دارًا، فالدُّورُ جَمعُ دارٍ؛ وهي المنازلُ المسكونَةُ والمحالُّ، وتُجمَعُ أيضًا على دِيارٍ[3]. والدّنيا كما هي دارٌ، والدّارُ الدّنيا، والدّارُ الآخرةُ، إشارة إلى المقَرَّين في النّشأةِ الأُولَى، والنّشأةِ الأُخرى. وقيلَ: دارُ الدّنيا، ودارُ الآخرة[4]، وجاءتِ الدّيارُ هنا بمعنى: المَنازل.

4) ﴿جَٰثِمِينَ﴾: أصلُ مادّتِه (جثم)، فالجيمُ والثّاءُ والميمُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ. فالجُثمانُ: شَخصُ الإنسانِ[5]. وجَثَمَ يَجثِمُ جُثومًا؛ أي: لَزِمَ مكانًا لا يَبرَحُ[6]. وفي قول الله جلَّ وعزَّ: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾ [الأعراف: 78] أصابَهُمُ البلاءُ فبركوا فيها، والجاثمُ: البارِكُ على رِجلَيه، كما يَجثِمُ الطَّير؛ أي: أصابَهُم العَذاب فماتوا جاثمين؛ أي: باركين[7]، وهو المعنى المرادُ هنا.

5) ﴿يَغۡنَوۡاْ﴾: أصلُ مادّتِه (غني)، فالغينُ والنّونُ والحرفُ المُعتَلُّ يدلُّ على الكِفايَةِ. فالغِنَى في المالِ. يُقالُ: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى. والغَناءُ بفتحِ الغَينِ مَعَ المَدِّ: الكِفايَةُ. وغَنِيَ القَومُ في دارِهِم: أقاموا، كأَنَّهُمُ استَغنوا بها. ومَغانيهُم: مَنازِلُهُم. ويُقالُ: غني في مكانِ كذا: إذا طال مَقامُهُ مُستَغنيًا به عن غيرِه[8]، وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾؛ أي: كأنْ لم يقيموا في ديارِهِم.

(1) الخليل، العين: (صبح).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (دور).
(4) الرّاغب، المفردات: (دار).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جثم).
(6) الخليل، العين: (جثم).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جثم).
(8) الرّاغب، المفردات: (غني)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).

6) ﴿بُعْدًا﴾: أصلُ مادّتِه (بعد)، فالباءُ والعينُ والدّالُ أصلٌ يدلُّ على خِلاف القُربِ، والبَعَدُ: الهَلاكُ[1]، ومنه قَولُه تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾؛ أي: هَلَكَتْ. والبُعدُ والبِعادُ أيضًا منَ اللّعنِ، وهذا من قولك: بُعْدًا وسحقًا، ونصبه على المصدريّةِ، ولم يجعلْه اسمًا[2]، و﴿بُعْدًا﴾ في الآية بمعنى: الطّرد واللّعن والهلاك.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نتيجةُ المعاندةِ الوقوعُ في المباعدة، واستحقاقُ اللّعنِ بعد الطَّعن

يُخبرُ اللّهُ تعالى عن قوم شعيبٍ عليه السلام، بعدما أصابَهُمُ العذابُ بالصّيحةِ، فماتوا جميعًا، وزالوا عن وجه الأرضِ، كأن لم يقيموا في ديارهم من قبلُ، ولم يتّخذوها منازلَ، ثمّ نبَّه اللّهُ تعالى المخاطَبين بأداة التّنبيهِ ﴿أَلَا﴾، فقال: ألا طُردت مَدينُ من رحمة اللّهِ بحلول نقمتِه عليهم، كما طُردت منها ثمودُ من قبلُ، بإنزال اللّهِ تعالى سخطَه عليهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ الوصلِ:

ليس بعدَ الوعيدِ إلّا نزولُ العذابِ الشّديدِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ موصولٌ بما سبقَه بالعطفِ؛ لأنّهُ لمّا أوعدهُم بأن سيأتيهِمُ العذابُ المُخزِيُ، فإنّ وعيدَهُ آتٍ لا محالةَ لمّا لم ينتفعوا بصادعِ وعيدِهِ؛ فجاءَ الأمرُ بالعذابِ والعقابِ بعدَ أن نجّى اللّهُ شعيبًا ومَن معهُ.

المتشابهِ اللّفظيّ:

لم يتقدَّمْ تخويفٌ بقربِ العذابِ فعطفَ بالواوِ، وكانَ التّخويفُ بالعذابِ قريبًا فعطفَ بالفاءِ

جاء قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: 58]، وقولُه تعالى هنا: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، منسوقًا بالواو، فيما جاء قولُه تعالى:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعد).
(2) الخليل، العين: (بعد).
(3) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ [هود: 66]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: 82] منسوقًا بالفاءِ، فيُسألُ عنِ الفرقِ بينَ اختلافِ حرفيِ العطفِ في كلِّ موضعٍ؟

وقبلَ الجوابِ عن ذلكَ لا بدّ من بيانِ الفرقِ بينَ الواوِ والفاءِ العاطفتينِ، وهو أنَّ عطفَ الجملةِ أو الصّفةِ بالفاءِ غالبًا ما يكونُ من بابِ السّببيّةِ[1]؛ فتكونُ الجملةُ الأولى سببًا للثّانيةِ أو كالسّببِ، وشدّةُ الاتّصالِ بينهُما أقوى منَ الواوِ، ثمَّ إنَّ الفاءَ دالّةٌ على التَّعقيبِ.

ففي سياقِ الآيتينِ الأُولَيَيْنِ ليسَ فيهِ ما يدلُّ على التّخويفِ بقربِ الوعيدِ الّذي أوعدوهُ ليدلَّ على اتّصالِ ما قبلَ (لَمّا) بما بعدَها اتّصالًا وثيقًا بما يشبهُ السّببَ والنّتيجةَ؛ فلمْ يَحسُنِ العطفُ بالفاءِ، بلْ عطفَ بالواوِ؛ لأنّه "لم يسبِقْهُ فيها ذِكرُ وعدٍ يجري مَجرى السّببِ المُقتضي لدخولِ الفاءِ في مَعلولِهِ"[2]، فمرادهُ الجمعُ بينَ الخبرينِ فحسب، أو من بابِ عطفِ القصّةِ على نظيرتِها[3]، وهذا القياسُ يشمَلُ قصّةَ هودٍ وقصّةَ شعيبٍ المنسوقتينِ بالواوِ، ومئنةُ ذلكَ أنَّ التّخويفَ في قصّةِ شعيبٍ قد قارنَهُ التّسويفُ بقولِهِ تعالى: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾[4].

وخلافُ ذلكَ تمامًا في الآيتينِ الأُخرَيَيْنِ؛ فقد أوعدهُم صالحٌ أنْ يتمتّعوا ثلاثةَ أيّامٍ، وبعدَها يحلُّ العذابُ، أمّا في قصّةِ لوطٍ فقد أوعدَهُم بأن يكونَ موعدُهُمُ الصّبحَ، والصّبحُ أقربُ الأوقاتِ بعدَ اللّيلِ؛ "فكانَ ذلكَ بعقبِهِ غيرَ مُتراخٍ؛ فاقتضى الفاءَ الّتي تدلُّ على التّعقيبِ، واتّصالِ ما بعدَها بما قبلَها من غيرِ مهلةٍ بينهُما"[5].

سرُّ التّعبيرِ بالمجيءِ:

جاء التَّعبيرُ بمجيءِ الأمرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ دونَ إتيانِهِ؛ لأنّهُ أرادَ أن يُردِفَ الإصابةَ معَ المجيءِ؛ فإنَّ المجيءَ إتيانٌ معَ الإصابةِ، فيأتي أمرُنا وهو العذابُ، ويصيبُ منْ أُرسِلَ إليهم، وهمُ القومُ الّذينَ كذّبوا شعيبًا، وهو أفخمُ منَ التّعبيرِ بالإتيانِ.

(1) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 3/351.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/237.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/203.
(4) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/791.
(5) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/792.

لأنّ المجيءَ أعمُّ، فالإتيانُ مجيءٌ بسهولةٍ، والإتيانُ قد يُقال باعتبار القصدِ، وإنْ لم يكنْ منه الحصولُ، والمجيءُ يُقال اعتبارًا بالحصولِ[1]، ومجيءُ أمر الله بالعذاب حاصلٌ، مُحقَّقٌ ثقيلٌ وقعُهُ على المُعذَّبين، وصعبٌ تحمّلُهُ. ومن هنا اختارَ لفظَ المجيء دونَ الإتيان؛ لِما فيه من دلالتي: عدم السّهولة، واعتبار الحصولِ الفعليِّ لا قصده.

المجيءُ إتيانٌ معَ إصابةٍ

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضِي:

التّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ له دلالةٌ دقيقةٌ ههنا، وهو أنّ المجيءَ بالأمرِ قد اقتربَ ودنا، وبدت بوادرُهُ؛ لأنّ إنجاءَ المؤمنينَ قد حصلَ قبلَ وقوعِ العذابِ[2].

براعةُ الاستعارة في لفظِ الأمرِ:

لفظ (الأمرُ) في قولهِ تعالى: ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾، ليسَ على حقيقةِ لفظهِ، إنّما القصدُ منهُ أثرُ الأمرِ لا الأمرُ نفسُهُ، وهو ما أمرَ اللّهُ بهِ أمرَ تكوينٍ (كنْ)، والمعنى: لَمّا اقتربَ مجيءُ أثرِ الأمرِ الإلهيِّ، وهو العذابُ[3]، أي: بوادرُ الأمرِ، وأُطلقَ الأمرُ بقصدِ التَّهويلِ والتَّفخيم والتَّعظيم، فإنَّ عذابَ اللّه ﷻ في المكذِّبين لا يكونُ إلّا عن أمرِه، كأنَّه قال: ولمّا صدرَ أمرُنا، فهو على تقديرٍ مجازيٍّ، بتشبيه صدورِ الأمر بمجيئه، فهو استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، أو على تقدير: ولمّا جاءت بوادرُ أمرِنا، فهو على المجازِ بالحذف.

شبّه صدورَ الأمر وظهورَ بوادره بمجيئِهِ

أو نفسِّرُ الأمرَ بالعذابِ على طريقِ الاستعارةِ المكنيّةِ[4]؛ فقد شبَّهَ الأمرَ وهو العذابُ بشخصٍ، وحذفَ المشبّهَ بهِ، وأبقى لازمًا من

إظهارُ العذاب في صورةِ شخصٍ يجيءُ ويذهبُ؛ زيادةٌ في التّخويفِ والتّهديدِ

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/103.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/103.
(4) الاستعارةُ المكنيّةُ "أن يُذكر لفظُ المشبّه مُرادًا به حقيقته، ويدلّ على أنّ القصدَ تشبيهُه بغيره بذكر شيءٍ من لوازم ذلك الغير". يُنظر: السّبكيّ، عروس الأفراح: 2/197، كقول الشّاعر: وإذا المنيّةُ أنشبَت أظفارَها.

لوازمِه وهو المجيءُ، وفائدتُهُ إظهارُ العذاب في صورةِ شخصٍ يجيءُ ويذهبُ زيادةً في التّخويفِ والتّهديدِ للمخاطَبينَ المنكِرين نبوّتَهُ ودعوتَهُ ﷺ.

بلاغةُ الإسنادِ المجازيِّ:

إظهار اقتدار اللهِ تعالى وبيانُ آثارِ قهرِهِ ومُوجبِ عذابِهِ

إسنادُ المجيءِ إلى الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ مجازٌ، الغرضُ منهُ تمثيلٌ لظهورِ اقتدارِهِ ﷻ، وبيان آثارِ قهرِهِ تعالى ومُوجبِ عذابِه، فكأنّ العذابَ قد حضرَ بنفسِه، وفي ذلكَ حصولُ آثارِ الهيبةِ ما لا يحصلُ في التّعبيرِ بالأمرِ على وجهِ الحقيقةِ.

دلالةُ الإضافةِ:

تعظيمُ الأمرِ لتعلُّقِهِ بالإرادةِ الرّبّانيّةِ ودلالتِهِ على العظمةِ الإلهيّةِ

جاءَ الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ مضافًا إلى الضّميرِ الدّالِّ عليه سبحانهُ (نا) لتعلُّقِه بالإرادةِ الرّبّانيّةِ، ودلالتِه على الجبروتِ والعظمةِ الإلهيّةِ[1]؛ فيقع الأمرُ موقعَ الهيبةِ والتّعظيم في نفوسِ المخاطَبينَ، وفيه تخويفٌ للأعداءِ، وطمأنةٌ للأولياءِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿نَجَّيۡنَا﴾:

المبالغةُ في التّنجيةِ، والإيماءُ إلى كثرةِ سُبُلِ النّجاة

جاءَ استعمالُ فعلِ ﴿نَجَّيۡنَا﴾ بصيغةِ (فَعّلَ) الثّلاثيّ المزيدِ بحرفٍ واحدٍ، وهو تضعيفُ عينِ الفعلِ، ومن معانيهِ المشهورةِ المبالغةُ والتّكثيرُ[2] كقولِه تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ [يوسف: 23]؛ فإنّه لم يكنْ بابًا واحدًا، والمرادُ في قصّةِ شعيبٍ ﷺ الإشارةُ إلى المبالغةِ في إنجاءِ شعيبٍ ومَن معهُ منَ القومِ الظّالمينَ.

وقد يُقالُ: إنَّ منْ مقتضياتِ الحدثِ الدّالِّ على التّكثيرِ والمبالغةِ أن يستغرقَ وقتًا أطولَ، وأنّه يفيدُ تلبُّثًا ومكثًا، ومن هُنا التّفريقُ في استعمالِ (نَجّى) و(أنْجَى) فإنّ القرآنَ الكريمَ كثيرًا ما يستعملُ الفعل (أنْجَى) للإسراعِ فيها، ويُؤثرُ استعمالَ الفعلِ (نجّى) للتّلبُّثِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/367.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/64، وابن عصفور، المتع في التّصريف، ص: 129.

والتّمهُّلِ في التّنجيةِ[1]، وهو مُتحقِّقٌ في قصّةِ شعيبٍ؛ فقد كانَ تهديدُهُم مُتدرِّجًا؛ لأنّهُ خاطبهُم أوّلًا بأن يعملوا على مكانتهِم، وهو تهديدٌ بوقوعِ العذابِ إلّا أنَّ لهُ وقتًا مُؤجَّلًا، ثمَّ جاءَ بـ (سوفَ) الدّالّةِ على الزّمنِ المتمادِّ، ثمَّ دعاهُم للارتقابِ، وهو يقتضي زمنًا؛ فثبتَ أنَّ حلولَ العذابِ اقتضى زمنًا؛ فناسبَهُ الفعلُ ﴿نَجَّيْنَا﴾ الدّالّ على التّلبُّثِ والتّمهُّلِ، كما أنَّ هذا الفعلَ يومئ إلى أنَّه لم يجعلْ لشعيبٍ وقومه سبيلًا واحدًا منَ النَّجاةِ، بل جعل لهم سبلًا كثيرةً، وفي ذلكَ طمأنةٌ لأوليائهِ، وأنّه معهُم، ولن يتركَهُم.

فائدةُ إسنادِ الفعل لنونِ العظمةِ:

تعظيمُ التَّنجيةِ وتوقيرُ المُنَجَّى

جاءَ فعلُ ﴿نَجَّيْنَا﴾ مُسندًا للضّميرِ (نا) الدّالِّ على العظمةِ والإجلالِ؛ وأنّه نجّاهُ تنجيةً عظيمةً[2]، وفيه تشريفُ نبيِّ اللّهِ شعيبٍ ومن معهُ وتوقيرُهُم؛ فإنَّ التّعظيمَ والتّوقيرَ من أسبابِ نصرةِ الرّسلِ.

علّةُ البدءِ بذكرِ النَّجاةِ قبل العذابِ:

الاعتبارُ المعنويُّ في المسارعةِ في التَّبشيرِ، والزَّمانيُّ فهو الواقع

في قولهِ تعالى: ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ ذكرَ تنجيةَ شعيبٍ عليه السلام ومَن معه منَ المؤمنين، وكانَ مقتضى الظّاهرِ أن يذكرَ وقوعَ العذابِ على الّذينَ أنكروا نبوَّتَه ودعوتَه، لكنّهُ عدلَ عن ذكرِ العذابِ إلى النّجاةِ؛ لأنَّ "الإخبارَ بتنجيةِ الأولياءِ لا سيّما عندَ الإنباءِ بحلولِ العذابِ أهمُّ، ذكرَها أوّلًا، ثمَّ أخبرَ بهلاكِ الأعداءِ"[3]، ولما فيه من تقديم الحدثِ الأوّلِ؛ فإنَّ التَّنجيةَ هي الّتي وقعت، ثمَّ جاء العذابُ، ولا يُتصوَّر سوى هذا التَّرتيبِ الزَّمانيِّ، فعلَّةُ ذكرِ التَّنجيةِ أوّلًا الاعتبارُ المعنويُّ، والاعتبارُ الزَّمانيُّ.

(1) السّامرائيّ، بلاغة الكلمة، ص: 62 - 70.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/367.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/223.

فائدةُ التّعبيرِ بالموصولِ:

الإشعارُ بعلّة الحكم، وبناؤه على التّشويق

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ عبّرَ بالاسم الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معَ صلتِه ﴿ءَامَنُواْ﴾، وعطفهُ على ﴿شُعَيْبًا﴾، وعدلَ عنِ التّعبيرِ بالاسم الظّاهرِ فلم يقُلْ: (والمؤمنينَ) معَ وجازته اللّفظيَّة؛ إيماءً إلى علّةِ بناءِ الخبرِ على الصّلةِ، وعلّةِ ترتُّبِ الحكم، والمعنى: أنَّ إيمانَهُم سببٌ لنجاتهم منَ العذابِ.

كما أنَّ فيه تحقيقًا لعنصرِ التّشويقِ والتّرقُّبِ؛ لأنّهُ يجيءُ على مرحلتينِ؛ الأُولى: الذّكرُ والإبهامُ، والأخرى الفهمُ والبيانُ من خلالِ جملةِ الصّلةِ الّتي تبيّنُ الموصولَ وتوضّحهُ، فجملةُ ﴿ءَامَنُواْ﴾ بيانٌ وتوضيحٌ للاسم الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾.

سرُّ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ ﴿مَعَهُۥ﴾:

بيانُ الإيمانِ الخالصِ باللهِ تعالى، وما رسلُه إلّا وسائطُ هدايةٍ

لمّا ذكرَ فعلَ (الإيمانِ) أردفَهُ بظرفِ المعيّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، وسرُّ ذلكَ الإيذانُ بأنّ إيمانَهم إنّما هو كائنٌ باللهِ تعالى لا بشعيبٍ عليه السلام؛ لأنّ المعنى يحتملهُ، وهو يشبهُ قولَهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [هود: 66]؛ فإنّ الإيمانَ بصالحٍ عليه السلام مُحتملٌ[1]، فلمّا قالَ: ﴿مَعَهُۥ﴾ تعيّنَ أن يكونَ الإيمانُ باللهِ من صالحٍ وشعيبٍ، ومنَ الّذين معهُما في الآيتين، ومثله قوله تعالى على لسانِ ملكةِ سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النّمل: 44]، وفيه بيانُ الإخلاصِ في الإيمانِ للّه وحدَه، وأنَّ أنبياءَ اللّه ورسلَه ما هم إلّا وسائطُ هدايةٍ، وسبلُ نجاةٍ.

معنى الباءِ ودلالتُها:

(الباءُ) في قولِه تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ دالّةٌ على السّببيّةِ؛ فكانت رحمةُ الحقِّ سبحانهُ سببًا في نجاةِ شعيبٍ عليه السلام ومَن معهُ منَ القومِ الظّالمينَ[2].

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 311.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/104.

سرُّ تقديم النّاجين على سببِ النَّجيةِ:

إظهارُ كمالِ العنايةِ، وتعجيلُ المسرّةِ للسّامعينَ

تقديمُ ذكرِ شعيبٍ ﷺ والّذينَ آمنوا معهُ على ذكرِ الرّحمةِ في قولِه تعالى: ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ من بابِ تقديم ذكر النّاجينَ على ذكرِ سببِ تنجيتِهم؛ إظهارًا للعنايةِ الإلهيَّةِ الكاملةِ بشأنِ المُقدّم؛ ولأجلِ تعجيلِ مسرّةِ السّامعينَ وشوقِهم، وإيذانًا بأنَّ الرّحمةَ سابقةٌ منَ الرّبِّ سبحانهُ على العذابِ والغضبِ الّذي هو من مستتبعاتِ جرائمِ الظّالمينَ المجرمينَ[1].

بلاغةُ التّعبيرِ المجازيِّ بالرّحمةِ:

الرّحمةُ سببٌ والفضلُ مُسبَّبٌ عنها

جاء التّعبيرُ عن فضلِ اللّهِ بتنجيةِ المؤمنين بقولِه تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾؛ أي: بفضلِ اللّهِ عليهم؛ لأنّهُ لو لم يرحمْهُمُ الحقُّ سبحانهُ لكانوا من جملةِ المُستأصَلينَ؛ فكانَ نقمةً للكافرينَ وبلوًى للمؤمنينَ[2]، وأطلقَ الرَّحمةَ لبيانِ أنَّ فضلَ اللّه تعالى على عبادِه إنَّما هو بسببِ رحمتِه بهم، فأطلقَ السَّببَ وأرادَ المُسبَّبَ مجازًا مُرسَلًا. فالمُرادُ بالرَّحمة الفضلُ الخاصُّ بالتَّنجية منَ العذاب، والفضلُ العامُّ وهو النّبوّةُ والإيمانُ، فتفضَّلَ عليهم أوَّلًا بأن أرسلَ إليهم شعيبًا ﷺ، ثم تفضَّلَ عليهم بتوفيقِهم للإيمان، ثمّ نجّاهُم من عذابِ القوم الظّالمين.

دلالةُ تنكيرِ ﴿بِرَحْمَةٍ﴾:

رحمةُ اللهِ تعالى لا يقدرُ على مثلها غيرُه

نكَّر النَّظمُ لفظةَ ﴿بِرَحْمَةٍ﴾؛ ليخلعَ عليها تفخيمًا وتعظيمًا، والمعنى: أنّ نجاتَهُم كانت برحمةٍ عظيمةٍ منّا[3] لا يقدرُ عليها غيرُنا، ولا يحيطُ بها سوانا.

سرُّ التّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿مِّنَّا﴾:

الإشعارُ بالعنايةِ والرِّعايةِ باعتبارِ ابتداءِ إنزالِ الرّحمةِ منه تعالى

أوردَ النَّظمُ حرفَ (من) في قولِه تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، وقد باشرَت ضميرَ الجلالة المجموعِ؛ لبيانِ مبدأ الرَّحمةِ، وأنَّها نازلةٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/104.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/208.

منه تعالى، فهيَ النّبوّةُ المسندةُ إلى شعيبٍ ﷺ، وهي الإيمانُ بالنِّسبة للمؤمنينَ، فذِكرُ أنَّ الرَّحمةَ بدأت نزولًا منَ اللّه تعالى، فيه إشعارٌ وإيماءٌ بالعنايةِ والرِّعايةِ والتّشريفِ، فهي رحمةٌ منَ اللّه تعالى.

معنى الواوِ ودلالتُها:

مجيءُ أمرِ اللهِ تعالى عبارةٌ عن متضادّين؛ وهما تنجيةٌ وتعذيبٌ

لَمّا نجّى الحقُّ سبحانهُ نبيَّهُ شعيبًا ومن معهُ منَ المؤمنينَ لم يبقَ إلّا إيقاعُ العذابِ بمَن كفرَ وكذّبَ بدعوتهِ ﷺ، فقالَ: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾؛ فحسُنَ العطفُ بالواوِ؛ لأنَّه مجرَّدُ عطفِ حدثٍ على آخر، فإنَّ مجيءَ أمرِ اللّه تعالى، ترتَّبَ عليه أمران: الأوَّلُ التَّنجيةُ، والآخرُ التَّعذيبُ.

نكتةُ إسنادِ فعلِ الأخذِ للصَّيحة:

لمّا أخذَ الظّالمون من نعمِ اللهِ دون شكرٍ حسُنَ أخذُهم دون نُكرٍ

الأخذُ هو الاستيلاءُ على الشّيءِ بما للمُستولي منَ القوّةِ والتّمكُّنِ؛ ففي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ المأخوذَ مكبَّلٌ لا يستطيعُ فكاكًا[1] ولا خلاصًا، مهما حاولَ، ومهما أُوتيَ منَ القوّةِ، وفي ذلكَ إظهارُ شدّةِ العذابِ.

والتّعبيرُ بفعلِ الأخذِ ﴿وَأَخَذَتِ﴾ في عذابِ الصّيحةِ من بابِ الإسنادِ المجازيّ؛ لأنَّ الصّيحةَ ليسَ من صفاتها الأخذُ، بل هو صفةٌ للّهِ تعالى، وفي هذا التّعبيرِ معنى المجازاةِ؛ فإنّهم لَمّا أخذوا منَ النّعمِ، ولم يقابلوهُ بالشّكرِ قابلهُم بالأخذِ من جنسِ مرتكبهِم.

وهي أيضًا استعارةٌ؛ إذ إنّ الأخذَ إنّما تُوصفُ بها الأجسامُ في الحقيقةِ، والصّيحةُ عرضٌ منَ الأعراضِ؛ لأنّها بعضُ الأصواتِ، إلّا أنّها أقوى للأسماعِ قرعًا، وأبلغُ في القلوبِ روعًا[2].

المتشابهِ اللّفظيّ:

الصّيحةُ شديدةٌ، يبلغُ صوتُها الأرجاءَ، فيوقعُ من فيها منَ الأشدّاء

لَمّا كانَ الفاعلُ واحدًا في قوله تعالى في قصّةِ صالحٍ: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود: 67]، وفي

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/10077.
(2) محمّد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/63.

قولِهِ تعالى في قصّةِ شعيبٍ: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ وهو ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾، فللسّائلِ أن يسألَ عن سرِّ حذفِ تاءِ التّأنيثِ من فعل (أخذَ) في الموضعِ الأوّل؟

والجوابُ عن ذلكَ: أنّهُ لَمّا كانَ الفاعلُ بمعنى المصدرِ (الصّياح) أو الصّوتِ، وهو مُذكَّرٌ، أوردَهُ مُجرَّدًا من علامةِ التّأنيثِ حملًا على المعنى[1]، أمّا الآيةُ الواردةُ في قصّةِ شعيبٍ فإنّها وإنْ كانت طباقَ الأولى في المعنى إلّا أنّهُ تعالى أخبرَ عمّا أهلكَ بهِ قومَ شعيبٍ، فذكرَ ثلاثةَ ألفاظٍ؛ وهيَ الرّجفةُ والصّيحةُ والظّلّةُ، وكلّها ألفاظٌ مُؤنَّثةٌ فغلبَ التّأنيثُ[2] وتلاءمَ أن يكونَ الفعلُ مُسندًا للتّاءِ، فجاء التّذكير في الموضعِ الأوّل للإيماءِ للمعنى، وجاء التّأنيثُ في الموضعِ الآخر للإيماءِ للفظ، فهي صيحةٌ شديدةٌ، يبلغُ صوتُها الأرجاءَ، فيوقعُ من فيها منَ الأشدّاء.

سرُّ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

عبّرَ عن قومِ شعيبٍ بالاسمِ الموصولِ مع صلته في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، ولم يأتِ بالاسمِ الظّاهرِ بأن يُقالَ: (الظّالمين) معَ أنّه مرادفٌ له في الدّلالةِ؛ وذلك لما في الاسمِ الموصولِ من علامةٍ تدلُّ على علّةِ ترتُّبِ الحكم؛ فإنّهم قد أخذوا بالصّيحةِ عذابًا مُستَحقًّا مُسَجّلًا عليهم بالظّلم، وفيهِ إشعارٌ بأنّه إنّما أخذَهُم بالعذابِ بسببِ ظلمهم[3]، وهو الإشراكُ باللّهِ والهزءُ بأنبيائه.

وقوعُ الظّلم والعناد عليه علّةُ عذابِ الظّالمين

سرُّ اختيارِ وصفِ الظّلم:

اختارَ النَّظمُ الكريمُ وصفَ الظّلم دونَ غيرهِ ممّا يرادفهُ في المعنى كالكفرِ، أو الكذبِ وغيرهِ ممّا هو واقعٌ منهم؛ لأنّهُ أرادَهُ أن يكونَ تعريضًا بمن نزلَ عليهم القرآنُ الكريمُ، ثمّ كذّبوهُ، وهمْ

الشّركُ آفةُ الاعتقادِ، والظّلمُ آفةُ الأخلاقِ، وباجتماعِهما تنزلُ العقوباتُ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/92.
(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/764 - 767، والأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/268 - 269.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/237، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3745.

مشركو مكّةَ؛ فإنّهم إنْ لم ينتهوا ويحذروا ألبسَهُم الحقُّ سبحانهُ سربالَ الذّلِّ والمهانةِ، وأصابهُم العذابُ مثلَما أصابَ قومَ شعيبٍ لتساويهِم في الظّلم والكفرانِ، ولما في الظُّلم من إرادةِ أعلاهُ، وهو الشِّرك، فإنَّ الشِّركَ ظلمٌ عظيمٌ، وظلمُ الشِّرك من أبشعِ ما يقعُ منَ العبادِ، وأشنعِهِ، فالظُّلمُ وحدَه آفةُ الأخلاق، والشِّركُ آفةُ الاعتقاد، وباجتماعِهما تتعاظمُ المصائبُ لتحلَّ العقوباتُ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي:

جاءَ التَّعبيرُ عن ظلم هؤلاءِ بصيغةِ الماضِي في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لإبانتِه عن استحكام الظّلم فيهم؛ لما يدلُّ عليهِ الماضي من تحقُّقِ ظلمهِمْ وثباتِه؛ وليكونَ مصيرُهُم واقعًا لا محالةَ جزاءَ ظلمهِم، وهو استئصالُهُم بعذابِ الصّيحةِ.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

الصّيحةُ عذابٌ عـــامٌّ تـحـتـهُ الرّجفةُ والظُّلّةُ

أوردَ تعالى الرّجفةَ عذابًا لهم في قولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف: 91]، فيما أوردَ الصّيحةَ عذابًا لهم في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ فيُسألُ عنِ الفرقِ بينَ الموضعينِ، ولِمَ اختصَّ كلُّ موضعٍ بما اختصَّ بهِ؟

والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ الصّيحةَ عذابٌ عامٌّ تحتهُ الرّجفةُ، أمّا الرّجفةُ فهيَ عذابٌ خاصٌّ، وهي من نتائجِ الصَّيحةِ، وقد خصّصَ سورةَ هودٍ بما وقعَ فيها من مرتكباتِ قوم شعيبٍ، وسوءِ ردّهم وإساءتهِم واستهزائِهم ما ليسَ منهُ في الأعرافِ، ومعَ هذا ردَّ عليهم بألطفِ ردٍّ وأجملِهُ؛ فلهذا عمّمَ العذابَ بذكرِ الصّيحةِ، ولّما لم يُردْ في غيرِها مثلَ هذا في الدّعاءِ جاءَ باللّفظِ الأخصِّ؛ وهو الرّجفةُ رعيًا للنّظم الجليلِ[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/200 - 201.

وثمّةَ جوابٌ ثانٍ، فإنَّ المرادَ من أخذهم بضروبٍ منَ العذابِ لقبيحِ مرتكَبِهم وسوءِ ردِّهم وتكذيبِ نبيّهم؛ فذكرَ عذابَ الظّلّةِ، وهو غيمٌ تحتهُ سمومٌ فهو غيرُ الرّجفةِ؛ لأنّها زلزلةٌ، فعلى هذا يكونونَ قد أخذوا بعذابِ الزّلزلةِ، أمّا عذابُ الصّيحةِ فهو مصحوبٌ بصوتٍ، فوردَ العذابُ مُتدرِّجًا مُتناسِبًا، ثمَّ إنّهُ أرادَ تنوُّعَ عذابِهم بالرّجفةِ والصّيحةِ والظّلّةِ، كما فعلَ معَ آلِ فرعونَ بالطّوفانِ والجرادِ والقُمّلِ والضّفادعِ والدّم وغيرِها[1].

والأوفقُ هو الجمعُ، فإنَّ الصَّيحةَ نشأت عنها الرَّجفةُ في الأرض لشدَّتِها، وصاحبَتها الظُّلَّةُ، فينشأ عن هذا ثلاثةُ مظاهرَ للعذابِ الواحدِ، والأوضحُ فيه هو الصَّيحةُ الّتي كانتِ الاسمَ الأشهرَ لعذاب قوم شعيبٍ عليه السلام.

معنى الفاءِ ودلالتُها:

هلاكُ القومِ مسبَّبٌ عنِ الصَّيحةِ دون تراخٍ

بعدّ أن حلّ على قوم شعيبٍ عليه السلام عذابُهُ تعالى بالصّيحةِ كانَ نتيجةُ ذلكَ: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾؛ فجاءتِ الجملةُ بالفاءِ الدّالّةِ على التّعقيبِ والتّسبيبِ، فالفاءُ دالّةٌ على السّببيّة[2]؛ فكانَ أخذُهم بالصّيحةِ سببًا في أن أصبحوا في ديارِهم هلكَى خامدينَ، دون إطالةِ مهلةٍ أو تراخٍ.

فائدةُ التّعبيرِ بالإصباحِ:

مزيدُ عذابٍ وتحسيرٍ، وللإشعارِ بأنَّ العذابَ أتاهم آخرَ اللّيلِ

اختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الإصباحِ في قولهِ تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ دونَ غيرهِ منَ الألفاظِ المرادفةِ تخويفًا وتأسيفًا؛ فإنَّ الصّباحَ يمثّلُ استهلالَ يومٍ جديدٍ بما يحملهُ من معنى الهمّةِ والنّشاطِ والفرحِ بعدَ الرّاحةِ والهدوءِ؛ ليكونَ المرءُ قادرًا على ما يبتغيهِ الإنسانُ منَ الحركاتِ، وما يشتهيهِ منَ التّصرّفاتِ[3]، فيفجأهُمُ العذابُ على

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/202.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/425.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/326 - 327.

خلافِ ما يظنّونَ، فيكون أكثرَ وقعًا عليهم، وأشدَّ أثرًا، فتحيطهُمُ الحسرةُ والنّدامةُ، فتوقيتُ الإصباحُ فيه مزيدُ عذابٍ نفسيٍّ بعدَ العذابِ الحسّيِّ، وللإشعارِ بأنَّ العذابَ أتاهُم آخرَ اللَّيل.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي:

تحقّقَ مآلُهم بعذابِهم مع الإصباح

اختارَ النّظمُ لفظَ الإصباحِ بصيغةِ الماضي ﴿فَأَصْبَحُواْ﴾؛ ليدلَّ على حتميَّةِ مآلِهم، وتحقُّقِ مصيرِهم وعذابِهم، وهو طلوعُ الشّمسِ عليهِم، وقد أصبحوا جثثًا هامدين.

دلالةُ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ:

العذابُ في المكانِ المأمونِ جانبُه أشدُّ وقعًا ممّا سواه

استعملَ النَّظمُ حرفَ الظّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿فِي دِيَرِهِمْ﴾؛ فجعلَ الدِّيارَ ظرفًا لعذابِهم بالصّيحةِ، فأصبحوا جاثمينَ، وفي ذلك إشارةٌ إلى تلكَ الأماكنِ الّتي كانوا "يعيشونَ فيها مُتنعّمينَ مُترفّهينَ إلى أن كثّرهُمُ اللّهُ، وأعمرَهُم أعمارًا طوالًا"[1]، وقد آمنوا من عذابِه تعالى؛ فيكونُ حرفُ الظّرفيّةِ مشيرًا إلى بقائِهم في ديارِهِمُ الّتي عصوا اللّه تعالى فيها، وكفروا نعمَهُ فيها، وعاندوا وكابروا.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيِّ في الجمعِ والإفرادِ:

الزّلزلةُ مُختصَّةٌ بجزءٍ من الأرضِ، والصّيحةُ شأنُها الانتشارُ لتعمَّ الأماكنَ المتنائيةَ

جمعَ لفظةَ الدّيارِ في قصّةِ صالحٍ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: 67]، وأفردَها في قصّةِ شعيبٍ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف: 91]؛ لأنَّ الرّجفةَ هيَ الزّلزلةُ، وتكونُ مختصّةً بجزءٍ منَ الأرضِ، فأفردَ بقولِه: ﴿دَارِهِمْ﴾ [الأعراف: 91]، أمّا الصّيحةُ فتكونُ منَ السّماءِ، ويكونُ من شأنِها الانتشارُ لتعمَّ الأماكنَ المتنائيةَ، والدّيارَ البعيدةَ؛ فعبّرَ بقولِه: ﴿دِيَرِهِمْ﴾ جمعًا[2].

وفي التّعبيرِ بالدّيارِ جمعًا في قولِه تعالى: ﴿فِي دِيَرِهِمْ﴾ مُوجبٌ،

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/256.
(2) الكرمانيّ، البرهان، ص: 146.

وهو أنّ تفرُّقَ القوم الموعودينَ بالعذابِ في ديارٍ كثيرةٍ، قصدَ التّجارةِ أو الزّيارةِ أو غيرِها، ليسَ مانعًا من إيقاعِ العذابِ عليهِم[1].

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ الجثوم:

الجثومُ سكونٌ خامدٌ وصمتٌ مُطبِقٌ بعدَ حركةٍ وحياة

التّعبيرُ بالجثوم في قولِه تعالى: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ دونَ مرادفاتِه، جاء بمعنى السّكونِ، فالطّيرُ يبيتُ في وكرِهِ جثومًا؛ ويطلقُ على ما لا حركةَ لهُ، وهو الملازمُ لمكانِه لا يتحوَّلُ عنه؛ فكانَ هذا وصفًا لهؤلاءِ المُهلَكينَ بسكونِهم؛ فإنّه "لَمّا صاحَ بهِم تلكَ الصَّيحةَ زهَقَ روحُ كلِّ واحدٍ منهم، بحيثُ يقعُ في مكانِهِ مَيِّتًا"[2].

دلالةُ التّعبيرِ باسمِ الفاعلِ:

تصويرُ الصَّرعى بالجاثِمين لبيانِ موتِهم عن قوَّةٍ وحركةٍ

عبّرَ النَّظمُ عن حالةِ الجثوم بالصّيغةِ الاسميّةِ ﴿جَٰثِمِينَ﴾ المشوبةِ بروح الفعلِ؛ لدلالةِ هذهِ الصّيغةِ على الثّبوتِ والدّوام[3]؛ فمعنى الجثوم أن يكونوا "باركينَ على الرُّكَبِ.. وجثومُ الطّيرِ هو وقوعهُ لاطئًا بالأرضِ في حالِ نومهِ وسكونهِ باللّيلِ، والمعنى: أنّهم أصبحوا جاثمينَ على وجوههِم موتى لا يتحرّكونَ"[4]، وفي ذلكَ أكبرُ دليلٍ على أنّهم سكنوا سكونًا عظيمًا بعد حراكٍ وحياةٍ، لا بعد مرضٍ وهرمٍ، وثبتوا على أحوالِهم في ديارِهم "مَيِّتينَ لازمينَ لأماكنِهم لا بَراحَ لَهم منها"[5]، بعدَما نزلَ بهمُ العذابُ؛ فكانَ التّعبيرُ بالاسميّةِ ملائمًا أشدَّ الملائمةِ.

سرُّ استعمالِ ﴿كَأَن﴾:

تشبيه العذابِ بالاستئصالِ الماحقِ

استعملَ النَّظمُ الحرفَ ﴿كَأَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ تشبيهًا لحالتِهم، ونزولِ العذابِ، والاستئصالِ، ومحوِ آثارِهم، بحالِ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6642 - 6643.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/393.
(3) الرّضيّ، شرح على الكافية: 1/316، والزّركشيّ، البرهان: 4/72.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/221.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/252.

مَن لم تكنْ لهُ حياةٌ أصلًا في ديارِهم، مُتصرِّفينَ مُتردِّدينَ[1]؛ فمحى العذابُ كلَّ ذلكَ العيشِ الرّغيدِ فلم يبقَ منهُ شيئًا إلّا الجثوم والهمود.

وجهُ التّعبيرِ بنفي الغنى:

عبّرَ النَّظمُ عن زوالِهم بقولِه تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾، فلمْ يستعملْ مصطلحاتِ السّكنِ أو الإقامةِ؛ لأنَّ العذابَ قد محا آثارَهم، وأعظمُ آثارِهم التَّرفُ والحياةُ الرّغيدةُ، فأراد النَّظمُ التَّنبيهَ على أنَّ أعظمَ ما قد يوقعُ الإنسانَ في الكفرِ هو حرصُه على الدُّنيا، وتمسُّكُه فيها، أمّا السّاكنُ والمقيمُ فآثارُهُ باقيةٌ، وإنْ رحلَ عن مقامِه، لكنّهم هنا كأن لمْ يغنوا؛ أي: لم يقيموا بديارِهم مدّةً منَ الزّمنِ، وهو مأخوذٌ من غني بالمكانِ، إذا أقامَ بهِ، واستغنى به عن غيرِه[2].

التَّنبيهُ على أعظمِ أسبابِ التَّمسُّكِ بالدُّنيا وتركِ الآخرة

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الاستفتاح:

جاءتِ الجملةُ مصدّرةً بـ ﴿أَلَا﴾ الاستفتاحيّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ تنبيهًا لهم على استحقاقِهمُ العذابَ؛ فإنّ ﴿أَلَا﴾ منَ الأدواتِ الاستفتاحيّةِ الّتي تُقالُ عندَ المهمِّ منَ الأمورِ، وهي لنفي الغفلةِ. وليلتفتَ السّامعُ وينتبهَ ويُنصتَ لما سيُلقَى إليهِ؛ فلا تنالُهُ الغفلةُ بنصيبٍ عن الأمرِ الصّادرِ منَ المتكلّمِ، وليستقبلَ الكلامَ على أفضلِ استقبالٍ وأفيدِه[3].

لفتُ الأذهانِ للمهمِّ منَ الأمورِ للتّنبيهِ على استحقاقِ العذابِ

غرضُ الدّعاءِ بلفظِ الإبعاد:

جاءَ الدُّعاءُ على مدينَ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ للطَّردِ والإبعادِ من رحمتِه سبحانَهُ؛ ذلكَ أنهّم جحدوا باللهِ وآياتِه، وغرضُ الدّعاءِ عليهم إثرَ هلاكهم وزوالِهم بيانُ استحقاقِهم عذابَ الاستئصالِ جرّاءَ مرتكباتِهمُ الشّنيعةِ.

بيانُ استحقاقِ العذابِ بعدَ الاستئصالِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/425.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/501، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6645.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6646.

سرُّ العدولِ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ:

المبالغةُ في تفظيعِ كفرِ مدينَ لبيانِ استحقاقِهم عذابَهم

في قولِه تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ جاء ذكرُ قوم شعيبٍ إظهارًا، فلم يقُلْ: (ألا بعدًا لهم)، مع تقدُّم ذكرِهم في الآيةِ السّابقةِ، وغرضُ هذا العدولِ عن الإضمارِ إلى الإظهار الدّلالةُ على الطّغيانِ الّذي أوردَهُم هذهِ المرتبةَ، وللمبالغةِ في تفظيعِ حالِهم، ولِيناسبَ بمن شبّهَ هلاكَهم بهلاكِهم، وهُم ثمودُ، فكلاهما أُهلِكَ بالصّيحةِ[1].

بلاغةُ المجازِ بالحذف:

بيانُ الإحاطةِ الماحقةِ والعذابِ العامِّ

جاء التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ بحذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليهِ مقامَهُ طلبًا للإيجازِ[2]، فإنّ المعنى: بعدًا لأهلِ مدينَ[3]؛ لأنّ الأماكنَ ليست محلًّا للعذابِ، بل أهلها؛ ولأنّ الحُكمَ واقعٌ على أهلِ مدينَ لا مَدينَ نفسها، لكن جاء ذكرُ مدينَ لبيانِ أنّ العذابَ قد أحاطَ بها كلّها، كأنَّ القريةَ كلَّها قد هلكت، وفيه تصويرٌ بليغٌ لأثرِ الإهلاكِ، وأنَّه عامٌّ طامٌّ.

بلاغةُ التّشبيهِ بين المآلاتِ:

تشبيهُ انقراضِ مدينَ بانقراضِ ثمودَ بجامعِ العقابِ بالصّيحةِ

في قولِه تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ تشبيهٌ في البعدِ والهلاكِ، فقد شبّهَ مصيرَ أهلِ مدينَ بمصيرِ قوم ثمودَ، وهو تشبيهٌ يرادُ منهُ التّعريضُ بعيبِ إنسانٍ بأنْ يذكرَ عيبَ غيرِه[4]، ففي ذكرِ مآلِ قوم ثمودَ تعريضٌ بهم، وإنّكم لم تتعظوا بهم فإنّكُم وقتئذٍ شرٌّ منهُم. وفي جملة ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ "تشبيهُ البعدِ الّذي هو انقراضُ مدينَ بانقراضِ ثمودَ، ووجهُ الشَّبهِ التّماثلُ في سببِ عقابِهم بالاستئصالِ، وهو عذابُ الصّيحةِ"[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/38، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/323.
(2) ابن سنان، سرّ الفصاحة، ص: 210.
(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/298.
(4) الزّركشيّ، البرهان: 3/300.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/154.

ويحتملُ القصدُ من تشبيهِ ذاكَ أن يكونَ قائمًا على الاستطرادِ[1] بذمِّ ثمودَ لجرأتِهم في مناواةِ الرّسلِ، فلمّا كانَ المقامُ هنا مُهيّئًا لأن يختمَ الكلامَ بقصصِ الأمم البائدةِ، ناسبَ أن يذكرَ أشدَّها كفرًا؛ فشبّهَ هلاكَ مدينَ بهلاكِهم[2].

سرُّ تخصيصِ ثمودَ بالذّكرِ:

الإيماءُ إلى شدَّةِ غضبِ اللهِ على ثمودَ

خُصِّص ذكرُ قوم ثمودَ دونَ غيرِهم في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾؛ لأنّهُ قاسَ حالَ قوم شعيبٍ على حالِ قوم ثمودَ؛ لأنّهُ تعالى عذّبَهُم مثلَ عذابِ قوم ثمودَ؛ فكانتِ الصّيحةُ عذابًا للاثنين، فقد رويَ أنّهُ تعالى لم يُعذِّبْ أمّتين بعذابٍ واحدٍ إلّا قومَ شعيبٍ وقومَ صالحٍ عذّبهُما بالصّيحةِ[3]، ولِما في ذكرِ ثمودَ من مزيدِ غضبٍ عليها، بأن يُذكرَ عذابُها مع عذابِ قومٍ آخرين، فهو دالٌّ على الغضب الإلهيِّ المكينِ، وأنَّ عذابَها يومَ القيامةِ أليمٌ شديدٌ، وفيها مزيدُ تحذيرٍ من الأسبابِ الّتي وقعت فيها ثمودُ في المعاصي والكفرِ لِتُجتَنَبَ، وهذا شأنُ العقلاءِ أن يحذروا عذابَ اللّه تعالى بالحذر من أسبابِه، وشأنُ غيرِهم الانغماسُ في الأسباب السّابقةِ، ليُحشروا يومَ القيامةِ مع مَن أحبّوا وتابعوا.

بلاغةُ الإشارةِ التّعريضِيَّةِ:

الانتماءُ للقبيلةِ لا يُغني مِنَ اللهِ شيئًا، إن لم يكونوا على النَّهجِ السَّديدِ

قد ذكرَ ثمودَ وهو اسمُ القبيلةِ[4] بدلالةِ التّعريفِ والتّأنيثِ المُوجبَين للمنعِ منَ الصّرفِ، دون أن يقولَ: (قوم صالح)، أو (أصحاب الحجر)، وفي هذا التّعريفِ إشارةٌ تعريضيَّةٌ بقريشٍ في أنَّ القبيلةَ لا يمكنُ أن تكونَ نفعًا لأهلِها إن هُم صدّوا عن سبيلِ اللّهِ، ولم يتّبعوا

(1) "نوعٌ من علم البلاغة دقيقُ المجرى، غزيرُ الفوائد، يستعملُه الفصحاءُ، ويعوّلُ عليه أكثرُ البلغاء.. ومعناه في مصطلح علماء البيانِ أن يشرعَ المتكلِّمُ في شيء من فنون الكلام، ثمّ يستمرُّ عليه فيخرج إلى غيرِهِ، ثمّ يرجع إلى ما كان عليه من قبلُ"، يُنظر: العلويّ، الطّراز لأسرار البلاغة: 3/8.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/154.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/392 - 393.

(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/160.

هداهُ؛ ومئنةُ ذلكَ أنّهُ ﷺ خاطبَ عشيرتَهُ الأقربينَ بقوله: «يا مَعشَرَ قُرَيشٍ - أو كَلِمَة نَحوها - اشتَرُوا أنفُسَكُم، لا أُغنِي عَنكُم منَ اللّهِ شَيئًا، يا بَنِي عَبدِ مَنافٍ لا أُغنِي عَنكُم منَ اللّهِ شَيئًا، يا عَبّاسُ بنَ عَبدِ المُطَّلِبِ لا أُغنِي عَنكَ منَ اللّهِ شَيئًا، ويا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللّهِ لا أُغنِي عَنكِ منَ اللّهِ شَيئًا، ويا فاطِمَةُ بِنتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي ما شِئتِ من مالِي، لا أُغنِي عَنكِ منَ اللّهِ شَيئًا»[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصّيحةُ والصّاعقةُ:

الصَّيحةُ مشتقّةٌ منَ الصّياحِ، وهو تشقيقُ الصّوتِ كما مرَّ، والصّيحةُ في الآيةِ هيَ صيحةُ جبريلَ عليه السلام بالعذابِ الّذي جاءهُم بصوتٍ هائلٍ عظيمٍ تنخلعُ له القلوبُ، وتنفطرُ له الأفئدةُ، و"هيَ صيحةٌ عظيمةٌ دونها كلُّ صوتِ صاعقةٍ وكلُّ شيءٍ في الأرضِ"[2]؛ فقد قيّدها بأنّ دونها صوت كلِّ صاعقةٍ، ومعنى ذلكَ أنَّ الصّاعقةَ أقلُّ وقعًا من جهةِ كونِها للعذابِ من الصّيحةِ، الّتي هي: "الصّوتُ الشّديدُ من صوتِ الرّعدِ، يسقطُ معه قطعةٌ من نارٍ"[3]، ورأى الفخرُ الرّازيّ أنّ الصّاعقةَ تصاحبُ الصّيحةَ العظيمةَ، ومعها البرقُ الشّديدُ المحرقُ[4]، فهي تبعٌ للصّيحةِ؛ فثبتَ أنَّ الصّيحةَ أعظمُ وأبلغُ منَ الصّاعقةِ، وأنّها تباينُها من جهةِ كونِ الثّانيةِ مشتملةً على النّارِ، ثمَّ إنَّ الصّاعقةَ قد تكونُ محدَّدةً بموضعٍ معيَّنٍ، فيما تشملُ الصّيحةُ الدّيارَ جميعًا بمَن فيها.

الصَّيحةُ الصّياحُ الشَّديدُ الّذي يأخذُ كلَّ سامعٍ له، والصّاعقةُ مُشتملةٌ على قطعةٍ منَ النّارِ

الدّيارُ والبلادُ:

الدّارُ هي الموضعُ الّذي يعيشُ فيهِ النّاسُ، وهو ما اشتملَ على

(1) رواه البخاريّ، الصحيح الجامع، الحديث رقم: (2602).
(2) ملّا حويش، بيان المعاني: 3/134.
(3) الخليل، العين: (صعق).
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/371.

البناءِ وما خلا منهُ، والأصلُ فيها إحاطتُهُ من حواليهِ؛ لدورانِها على أهلِها وإحاطتِهم بها[1]، والدّارُ تتّصفُ بالسَّعةِ والشُّمولِ؛ وهي مأوى الإنسانِ ليلًا ونهارًا، وفي جميعِ الأوقاتِ؛ فاختارهُ في الآيةِ؛ لأنّهُ أرادَ أن يكونَ الوصفُ شاملًا اللّيلَ والنّهارَ؛ فقد أُنزلَ عليهمُ العذابُ ليلاً فأصبحُوا في ديارِهِمْ جاثمينَ هلكَى[2]، أمّا البلادُ فإطلاقُها يكونُ على كلِّ موضعٍ منَ الأرضِ عامرًا كانَ أوْ خلاءً[3]؛ فاختيارُ لفظِ الدّيارِ مناسبٌ أشدَّ المناسبةِ من لفظِ البلادِ الّذي يحتملُ الأرضَ الخلاءَ، والحقُّ سبحانهُ إنّما أوقعَ العذابَ على الدّيارِ المأهولةِ بالقوم الظّالمينَ.

الــدّارُ المسكـنُ الّذي يعيشُ فيهِ النّاسُ، والبلادُ المــوضِــعُ مـنَ الأرضِ عامرًا كانَ أو خلاءً

(1) الخليل، العين: (دور)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/480.
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (بلد).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»